إلى المجهـــول

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

المقدمة

الولوع بالمجهول من أمور الحياة والطبيعة والنفس والكون والشغف باستطلاعه وكشفه هو الذى أخرج الانسان من المعيشة فى الكهوف ومن حضارة العصر الحجرى من عصور الحضارة وأزال عنه خوفه من مظاهر الطبيعة بحث تلك المظاهر ، وهو الذى أدى به إلى كشف القفرات والبحار وزاد علمه بالسماء ، وعلمه ركوب الهواء فى الطائرات حتى طمع فى الوصول إلى الأفلاك ، وذلك الولوع بالمجهول هو الذي جعله يخترع مخترعات الحضارة التى زادت حياته بهاء ومتعة وراحة ولذة ، وجعله يجد لذة حتى فى ركوب الأخطار من أجل كشف مغاليق الكون والحياة والطبيعة ويستشعر اللذة حتى فيما قد يصيبه من الألم أو الهلاك فى أثناء بحثه المجهول من أمور الحياة والكون ، والولوع بالمجهول هو الذى أدى إلى سيطرة الأمم القوية التى تمكنت من كشف المخترعات التى زادتها قوة واستعلاء ، وإذا بحثت عما يميز أبناء الدول القوية التى تمتعت بالثروة والسطوة والعلم والحضارة عن أبناء الأمم المتأخرة التى لا تزال تعيش فى الكهوف أو الغابات أو فى المدن أو الأحياء المتهدمة القديمة الفقيرة الموبوءة بالأسقام والأقذار المطوية على أمرها لرأيت أن صفة النفس التى ميزت أبناء الشعوب القوية السعيدة المسيطرة على الحياة والناس هى الصفة التى تجعلهم يجدون لذتهم فى كشف مغاليق المجهول من أمور الحياة، والامة التي تريد أن تعلو وأن تأخذ مكانتها تحت الشمس ينبغى أن تهيئ لأبنائها نوعاً من التربية والتعليم يبث فى نفوسهم حب استطلاع المجهول وكشف مغاليقه . أما التعليم الذى لا يبث هـذه الصفة فى النفوس فهو تعليم لا يليق إلا بالذين يجدون لذتهم فى حياة الخمول من المألوف الذى أصبح كالمخدرات ، وكلما كان فقدان صفة حب استطلاع المجهول من النفوس أوضح وأظهر من أجل المؤثرات التاريخية المذلة المؤخرة كان ذلك أدعى إلى إصلاح نظم التعليم ، وإلى اتخاذ التربية التي تزيل هذه المؤثرات . والمراد بهذه القصيدة الدعوة إلى بث صفة حب استطلاع المجهول في نفوس النشء لأن نفوس النشء تحب استطلاع الغريب والمجهول بطبيعتها وترى لذتها فى ذلك قبل أن تعلمها التقاليد والأوضاع الخمول والقنوع بالمألوف ، ومن الخطأ أن يظن أحد أن عاطفة الشغف بالمجهول لا تنمى بالتربية وأنها قوة طبيعية فى الأمم القوية فحسب ... لا ... بل إن أسلوب التربية والتعليم قد يقوى هذه العاطفة التي هى أساس الرقي العلمى والاجتماعى الصحيح، وهذا الأسلوب من التربية ألزم فى الأمم الضعيفة لشدة احتياجها إليه

القصيدة

(الخطاب موجه إلى المجهول)

يحوطنى منـــك بحر لست أعرفه
ومَهْمَهٌ(١) لست أدرى ما أقاصيه

أقضى حياتى بنفس لست أعرفها
وحَوْليَ الكونُ لم تُدْرَكْ مجاليه(٢)

ياليت لى نظرة فى الغيب تسعدنى لعل فيه ضياء الحق يبديه

إخال أنى غريب وهو لي وطن
خاب الغريب الذى يرجو مُقَاصِيه(٣)

أو ليت لى خطوة تدحو مجاهله
وتكشف الستر عن خافي مساعيه(٤)

كأن روحىَ عُوْدٌ أنت تُحْكِمُهُ
فابسط يديك وأطلق من أغانيه(٥)

والروح كالكون لا تبدو أسافله عند اللبيب ولا تبدو أعاليه(٦)

(١) المهمه القفر (٢) المجالى مباديه
(٣) قاساه باعده والمراد بالغيب هنا المجهول لا غير
(٤) تدحو تبسط
(٥) يخيل للمفكر أحياناً أن خواطر النفس وأفكارها ريح تهب عليها أو يد تحركها كما تحرك يد الموسيقى أوتار عوده
(٦) لأن اللبيب أدرى من غيره بعظم الروح

كم ضراء وسط المدائن أذكي من ضراء الضرغام فى وسط غابه
وشباك من الجرائم والخطـ ـل حواها شيطانهم فى جرابه
وإذا ما الحياء لم يستر الحسـ ـن فماذا يفيده من نقابه ؟

* * *

قمت تدعو البنات للعلم فانظر كيف حلقن فوق ثم هضابه
وزها النيل بابنة النيل فاختا ل يجرُّ الذيولَ من إعجابه
وغدا البيت جنةٌ بالتى فيـــه خصيباً بالأنس بعد يبابه
يافتىَ الكرد، كم بززت رجالاً من صميم الحمى ومن أعرابه
نسب المرء ما يعدّ من الآء مال لا ما يعدّ من أنسابه
كم سؤال بعثت إثر سؤال أيقظ النائمين رجع جوابه
كنت فى الحق للإمام نصيراً والوفىّ الصفىّ من أصحابه
ثم هنيئاً قصر نالت ذرا المجـ ـد وفازت بمحصه ولبابه
منك عزم الداعى وفضل المجلىّ ومن الله ما ترى من ثوابه

على الجارم

وأكبر الظن أني هالك أبدا شوقاً إليك وقلبي فيه ما فيه
من حسرة وإباء لست أملكه يأبى لِيَ العيش لم تُدْرَكْ معانيه
وأنت في الكون من قاص ومقترب
قد استوى فيك قاصيه ودانيه[1]
كأنني منك في ناب لمُفْتَرِس المرء يسعى ولغز العيش يُدْمِيه
كم تجعل العقل طفلاً حار حائرُهُ ورب مُطَّلِبٍ قد خاب باغيه
لو النبال نبال القوس مُصْمِيَةٌ
كنت اذُرِيتَ بسهم القوس أرميه
أو كان للسحر سهم نافذ أبدا لكان لي منه سهم صال راميه
يا مُصْلِتَ السيف قد فُلَّتْ مضاربه
ورامِيَ السهم قد خابت مراميه
قلبي يحدثني أن لا يليق به رضا بجهل ذليل اللب يرضيه
قد ثار ثائر نفس عز مَطْلَبُها وطار طائر لب في مراقيه
كالنسر لا حاجب للشمس يحرقه
ولا الصواعق والأرواح تَثْنِيه[2]
وأنت كالليل والأفهام حائرة مثل العيون علاها منك داجيه
ليل مهيب كليل البحر حندسه تكاد تسمع منه صوت طاميه[3]
فليت لي فكرة كالكون واسعة
أدحو بها الكون تبدو لي خوافيه
ليس الطموح إلى المجهول من سفهٍ ولا السمو إلى حق بمكروه
إن لم أنل منه ما أروى الغليل به قد يحمد المرء ماء ليس يرويه
والقانعون بما قد دان عَيْشُهُمُ مَوْتٌ فان خضوع اللب يُرْدِيه[4]
يا قلب يهنيك نبض كله حُرَقٌ إلى الغرائب مما عز ساميه
فالعيش حب لما استعصت مسالكه
تجارب المرء تُدْمِيهِ وتُعْلِيهِ
كم ليلة بتها ولهان ذا أمل لم يُسْلِ قَلْبِيَ أن غابت أمانيه
لعل خاطر فكر طارقي عرضاً يدنو بما أنا طول العمر أبغيه
يوضح الغامض المستور عن فطن وأفهم العيش تستهوي بواديه

عبد الرحمن شكري

(١) أنت الخطاب كله موجه إلى المجهول
(٢) الأرواح الرياح
(٣) أشد ما يكون الليل روعة الليل في وحشة البحر ولذلك يشبه به المجهول
(٤) دان خضع وذل

شعر ابن تسعين!

كتاب الفصول والغايات

يا صاحب الرسالة الغراء :

إليك من شيخ قعيدة داره ، رهين كتبه وأسفاره ، تحية الأديب للأديب ، ومناجاة القريب للقريب . وبعد فإني لما قرأت في رسالتكم الاعلان عن كتاب « الفصول والغايات » لشيخ المعرة حكيم الشرق اقتنيت منه نسخة وقرأتها فرأيت الشيخ الحكيم قد أتى فيه بالعجب العجاب ، ورأيت الشيخ الفاضل الزناتي قد أحكم فيه الصنيع ، وفاق كل أديب ضليع ، كيف لا وهو تلميذ شيخي اللغة المرصفي والشنقيطي لذلك فقد جئت بأبيات مدحاً في الكتاب وناشره . وإني مرسلها إليك لنشرها ، ولا أظنك إلا فاعلا إن شاء الله ، وإني وقد جاوزت التسعين من عمري لم أنشر شيئاً من شعري قبل اليوم ، وها هي ذي الكلمة

أين مني أبو العلاء أحييه وأهديه أصدق التهنئات
أنا في مصر وهو في الشام رهن القبر أعظم بفرقة وشتات
نال منه يراع كل غبي ورموه بأشنع السيئات
فتصدى لنصره المعي هو «محمود» عصره ابن «زناتي»
وانتضى ماضي اليراع فأبدى عن «كتاب الفصول والغايات»
كان هذا الكتاب رجم ظنون وشكوك تحتاج للاثبات
فجلاه للناس صفحة حق نُضِّرَتْ بالعظات تلو العظات
وأفانين تبهر العقل لم تخ طر لندب سواه منتظمات
وتولى تفسيره ببيان واضح اللفظ ناضر الكلمات
فغدا في صنيعه عبقرياً جل قدرا عن ناشري الهفوات
ناشري الكتب للتجارة لا للـ ـعلم مملوءة من الغلطات
جاعلي النظم في الطباعة نثرا ونثير الكلام مثل الرفات
ونظمت القريض طوعا لوجه العلم ما قلت فيه «خذه وهات»

محمد بك علي الدرعمي